حوليات جامعة الجزائر 2 – أبو القاسم سعد الله
المجلد 02 / العدد 01

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

النشاط التجاري بين طرابلس الغرب وخلافة سكوتو الإسلامية خلال القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي.

The comercial activity between Tripoli west and the Caliphate of sokoto during the thirteenth century AH and nineteenth century AD

محمد عطية
Attia mohamed
جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)
مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الاسلامي جامعة سيدي بلعباس

عومار عطية
Attia omar
جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)
مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة غرداية

الارسال: 21/06/17 القبول :21/09/09 النشر:2022/06/30 المرسل: محمد عطية

الملخص باللغة العربية:

يتعرض البحث لتجارة القوافل بين طرابلس الغرب و خلافة سكوتو، إذ تعد شريان الحياة ليس بين الدولتين فحسب بل حتى في تلك المناطق و المراكز التي مثلت نقاط عبور شبه دائمة والتي تمثل في الوقت نفسه حياة للتجارة الصحراوية لما كانت توفره من ماء وأسواق للتبضع و أماكن لتقصي الأخبار المختلفة حول أمن الطريق و أسعار السلع. لقد ظلت بضائع و سلع الشمال تعرف رواجا في الجنوب كما مثلت مواد الجنوب مقتنيات هامة لدى مناطق الشمال. ولما كانت التجارة بهذا القدر من الرواج تفطنت الدول الاوربية لأهميتها لذا سعت جاهدة للاستيلاء عليها إذ مثّل الجانب التجاري مطلبا اقتصاديا لمنظري الاستعمار الاوربي الحديث لا سيما لتلك المواد التي لا تنتجها أوربا. ومع حلول القرن العشرين فقدت الطرق التجارية بين الدولتين أهميتها المعهودة عندما حولت فرنسا نصيبا منها نحو المناطق التي كانت تحتلها المتمثلة في الجزائر ، تونس و المغرب.

–الكلمات المفتاحية: القوافل، خلافة سكوتو، طرابلس الغرب، التجارة، الصحراء.

Abstract:

This research deals with the desert trade between Tripoli West and the sokoto caliphate, Trade is the lifeblood between the two countries and the transit centers through which convoys pass, Those centers were to rest and inquire about the route and prices, North Africa, especially Tripoli, benefited from the products of South Africa, while the goods were flowing in the markets of Sokoto, Ghat and Timbuktu, and at the beginning of the twentieth century, France took over the desert trade and turned part of it towards Algeria, Tunisia and Morocco.

key words:

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

Convoys, sokoto caliphate, Tripoli West, Trading, Desert.

المقدمة:

طرابلس الغرب خلال العصر الحديث هي إحدى إيالات الدولة العثمانية بشمال إفريقيا(الإيالات المغاربية)، وبقيت كذلك حتى وقعت تحت وطأة الاحتلال الايطالي في مستهل القرن العشرين، عندما بلغ الاستعمار الأوربي مداه. ولما كانت البلاد على علاقات متشعبة مع الدول الأوربية فقد مثلت دورا بارزا في مجالات عدة منها السياسية والاقتصادية والثقافية، ولعل رصيدها التاريخي جعل من العلاقات الاقتصادية لهذه البلاد متشعبة وفي كل الاتجاهات، وقد استوقفتنا حيوية نشاطها التجاري الدؤوب مع الضفة الشمالية للمتوسط من اليونان إلى إسبانيا، إذْ ساهم ذلك في نسج علاقات تجارية مع أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء فيما يُعرف بتجارة القوافل، مع ممالك السودان الغربي والشرقي وخلافة سكوتو وغيرها من أقاليم إفريقيا.

وإذا كان طريق الحرير من بلاد الشام إلى أقاصي جنوب آسيا قد اشتهر بما فيه الكفاية، على الرغم من قلة مخاطره مقارنة بالطرق الصحراوية؛ فإنّ الطرق التجارية المنطلقة من طرابلس الغرب ومن مدنها المتناثرة أيضا باتجاه الجنوب؛ كانت قد بلغت من الشهرة مبلغا أتاح لأجناس كثيرة عبورها، لاسيما الأوربيين وعلى رأسهم الفرنسيين الذين عملوا جاهدين على استكشاف المناطق التي تفضي إليها هذه المسالك في خطوة استباقية للاستيلاء عليها. وعلى ضوء هذه المعطيات سنحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على النشاط التجاري بين طرابلس الغرب وخلافة سكوتو في القرن التاسع عشر.

كان من الطبيعي أنْ ترتبط دولة-سكوتو- مع دول الشمال الإفريقي بعلاقات مميزة؛ وذلك لتوفر عوامل شتى جعلت وجود هذه العلاقة أمرا حيويا بالنسبة لهذه الدولة وظهورها كدولة إسلامية قوية منذ مطلع القرن التاسع عشر مما أثر بشكل واضح في تقوية أواصر العلاقات السياسية بين الحكام إلى خلق علاقة بين الشعوب، كذلك من المعطيات التي حتمت وجود علاقة بين المنطقتين موقع خلافة سكوتو الإسلامية على الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى، واعتبار هذا الموقع امتداداً طبيعياً لشمال إفريقيا الذي يمثل المنفذ الحيوي الوحيد الذي يربط بلاد خلافة سكوتو بالعالم، كما أنّ النشاط الكبير لتجارة القوافل ساعد في إقامة علاقات خارجية لخلافة سكوتو، وهو أحد المؤثرات التي جعلت العلاقات بين المنطقتين تتجاوز الإطار السياسي لتصبح علاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية.

أولا- لمحة عامة حول طرابلس الغرب وخلافة سكوتو:

كثيرة هي المدن التوأمة في دواخل الصحراء وعلى الساحل الجنوبي للبحر المتوسط وكثيرة هي أيضا أشكال العلاقات التي تربط أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء بعالم هذا البحر الزاخر، كما هو الحال بالنسبة لطرابلس الغرب وخلافة سكوتو الإسلامية.

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

1-طرابلس الغرب:

تشكلت خلال العصر الحديث الكيانات الجغراسياسية المغاربية – عدا المغرب الأقصى- ضمن أقاليم حكم الدول العثمانية، وأهم ما يمكن أن يلاحظه المؤرخون والجغرافيون على حد سواء ذلك التشابه الكبير في جغرافية شمال إفريقيا، و الأهم من ذلك التشابه الكبير في تسمية عواصم هذه الإيالات فطرابلس الغرب وتونس والجزائر عواصمها تحمل الاسم نفسه، و الاختلاف فقط في طرابلس زيادة على اسمها أضيفت إليها الغرب تمييزا لها عن طرابلس الشام.

وطرابلس البلد كانت تضم ثلاثة مدن ضمن إقليمها هي لبدة ،طرابلس وصبرة، ثم شاع إسم طرابلس المدينة على تلك الواقعة بين المدينتين السابقتين على الساحل الغربي للبحر، وبذلك وضع هذا اللفظ عَلما [1]

يعود تاريخ طرابلس الغرب إلى فترات تاريخية عريقة وموغلة في القدم؛ كما هو شأن العديد من المدن، إذ أهلها الموقع الاستراتيجي لاكتساب أهمية تجارية منقطعة النظير، بل تكاد تكون فريدة من نوعها، فالفينيقيون كانوا أول من تفطنوا لها، وأسسوا بها مراكز تجارية عند تماس رمال الصحراء بالبحر، ولطالما كانت الصحراء في هذا الإقليم مكانا تنتهي موجات البحر على أطرافه، وهذه ميزة متأصلة في هذه المنطقة قل ما وجدت في مناطق أخرى[2]، ومهما يكن من أمر فالمصادر التاريخية التي تتوفر على معلومات كافية حول التاريخ القديم لهذه المدينة حاضرة الاقليم، إذْ تكاد تُجمع جل المصادر والوثائق وغيرها من الكتب التي تطرقت لهذا الشأن بأنّ تأسيس هذه المدينة - التي عُرفت في بعض الدراسات بمدينة أويا- يكاد يرتبط بظهور الفينيقيين في السواحل الجنوبية الوسطى والغربية من البحر الأبيض المتوسط وقيامهم هناك بتأسيس العديد من المراكز والقواعد التجارية مع نهاية الألف الثانية أو بداية الألف الأولى قبل الميلاد، شأنها في ذلك شأن كل المستعمرات الفينيقية التي تم إنشاؤها على خط السواحل المتوسطية أثناء حركتهم التوسعية التجارية إبان تلك الفترة الزمنية المتقدمة.[3]

بيد أنّ هذا الأمر لم يزيل الشك لدى المؤرخين حول الفينيقيين لكونهم المؤسسين الحقيقيين لمدينة أويا(طرابلس الحالية)، وإذْ ذاك يتبادر إلى أذهان الكثيرين سؤالا مفاده احتمال تأسيس المدينة قبلهم، وقاموا هم أي الفينيقيين قاموا بتطويرها لما تيقنوا من أهميتها في المجال التجاري وعليه تكون قد استمدت شهرتها بدخولهم إليها، وما أمر صيتها الذي ذاع في الآفاق إلا بفضلهم.

ظلت طرابلس بموقعها الجغرافي الذي يحاكي مدن الشمال، يساهم في النشاط التجاري بينها وبين المدن المجاورة لها مشكلة بذلك مركزا تجاريا تلتقي فيه العديد من القوافل التجارية. والتطورات السياسية التي شهدتها البلاد عندما أصبحت ولاية عثمانية وما يترتب عليه من فرض للأمن والاستقرار والتطور

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

الحضاري زاد من حيوية الحركة التجارية مع الصحراء الكبرى، على أنّ ذلك لم يكن يقتصر على هذه الفترة فالمدينة والبلد قد شهدت وفي وقت مبكر من العصور القديمة نشطا هاما في ما يسمى بتجارة القوافل أو التجارة الصحراوية؛ وكانت تمثل دورا محوريا في تنمية التجارة في دواخل إفريقيا جنوب الصحراء، ولذلك استغل الفينيقيون هذه المميزات لصالحهم؛ فكانوا يأتون بأعداد كبيرة إليها وللمدن المجاورة لها للبيع بها والتزود بالشراء أو المقايضة من بضائع التجار القادمين من الصحراء والمحملين بمختلف السلع، كريش النعام وجلود الحيوانات والصمغ والعاج والعبيد وغيرها [4].

تشكلت بفعل الاتصالات الكثيرة بين طرابلس و إفريقيا جنوب الصحراء منذ عهد الفينيقيين وحتى الرومان عناصر أسست لرسوخ قواعد تجارية قارة ولعل أهم أساس لذلك هو تحمل مشقة السفر وتجارة القوافل عبر الصحاري القفار، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فالطرابلسيون كانوا سفراء وممثلين عن الجنس الأبيض لجميع البشر في إفريقيا[5].

بقي شأن البلاد كذلك في عهد القرطاجيين ومن بعدهم الرومان، ولعل أهم من نشط التجارة أكثر في العهد الإسلامي خلال الفترة الوسيطة الأغالبة والفاطميون. وفي هذا الصدد يذكر أنّ البلاد أو بالأحرى أجزاء منها بقيت خاضعة لولاة الخلفاء بإفريقية إلى أنْ استطاع بنو الأغلب السيطرة على إفريقية سنة 184هـ/ 800م، وعليه ظلت تحت سيطرتهم حتى استطاع الفاطميون إنهاء حكمهم سنة 296هـ/ 910م حينها ضمت طرابلس إلى ممتلكاتهم في بلاد المغرب، وعندما غادر المعز لدين الله الفاطمي مدينة المهدية إلى مصر سنة361هـ/ 972م، أوكل مهمة حكم إفريقية إلى بلكين بن زيري الصنهاجي وولى طرابلس لحكم عبد الله بن يخلف الكتامي، ليقرر بعدها يوسف بن بلكين بن زيري ضم طرابلس وإلحاقها رأسا بإفريقية بعد موافقة المعز لدين الله سنة 367هـ/978م، وبقيت ضمن إقليم المهدية إلى غاية سنة 515هـ/1121م، عندما رفض أهلها دفع الجزية وأعلنوا الاستقلال، إلى غاية سنة 541هـ/1147م، بيد أن الأمر لم يطل فقد استطاع ملك صقلية رجار احتلالها في حدود سنة 553هـ/1158م، وبعدها ثار أهلها على الصقليين وطردوهم من بلادهم؛ التي تولى حكمها رافع بن مطروح ، هذا الأخير الذي أعلن بعد سنتين بيعته لعبد المؤمن بن علي، الذي أقره على حكم مدينة طرابلس[6].

وفي هذه الحالة التي تدل على كثرة الحروب وعدم الاستقرار وكنتيجة لطبيعة التجارة الصحراوية التي تعترضها عوائق شتى، في حالة ما إذا استثنينا ذلك لنا أنْ نتصور كيف كانت الحركة التجارية في العصر الحديث عندما تطورت أمور التجارة وارتفع عدد السكان هنا وهناك. لقد بقيت الأمور على هذه الحالة حتى في زمن الاستعمار الأوربي وما أحدثه من تغيرات مست أمور عديدة أبرزها الاستيلاء على الطرق التجارية التي ظلت ذات حركة دائبة [7].

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

يلاحظ الناضر لمدينة طرابلس الواقعة في سهل منبسط جمالها الأخاذ من خلال مآذنها البيضاء ذات التيجان الخضراء، تتكسر الأمواج العاتية على جدرانها كلما هبت الرياح، ويتراء له أيضا ميناء المدينة من البحر يزينه برج منارتها، وما أهل الميناء لينال هذه الدرجة من الاهتمام اتساعه ووجود سكاكين من الصخور على أطرافه تمتد من الغرب إلى الشمال الغربي، وكأنّ الميناء محمي طبيعيا[8].

2- خلافة سكوتو الإسلامية:

استطاع الشيخ عثمان بن فودي بداية القرن التاسع عشر ميلادي أنْ يؤسس دولة إسلامية سارت على نهج الخلافة الإسلامية، بعد حركة إصلاحية جهادية شملت بلاد الهوسا (نيجيريا الحالية)، ثار خلالها ضد ممالك الهوسا الوثنية[9]، وعمل على محاربة البدع والخرافات، ونشر الإسلام وتصحيح العقيدة، وتم تقسيمها إلى ولايات قصد تسهيل تسيير شؤونها، وقد كانت مقسّمة أثناء فترة الجهاد؛ حيث عيّن الشّيخ عثمان بن فودي الأمراء على الأقاليم وعقد لهم الألوية فكان الشّيخ يفصل في أيّ نزاع حول القيادة، وكان لكلّ ولاية أميرها، ومعه أعوان كالوزير، وقائد الجند والإمام الأكبر، وقاضي القضاة، وكبار العلماء، وعمال الولايات[10]. ولمّا استتبّ حكم بلاد الهوسا للشّيخ عثمان بن فودي قسمها إلى قسمين؛ حيث نصّب أخاه الوزير الأكبر على سائر البلاد الشّرقية[11] وعاصمتها جواندو على بعد مائة ميل من سوكوتو، وتعاقب عليها سلاطين من نسل عبد الله بن فودي[12]. وقد شمل هذا القسم الامارات التّالية: نوبيNupe، وإلورنIllorin وكبيKappi، ويوري Youri، وقرما Gorma، وزبرما Zaberma، وكامبا Kamba، وأريوا Arewa ، ودندي Dendi، وبورجو Borgu، و لبتاكو Liptako[13]. ونصّب ابنه محمد بلّو على سائر البلاد الغربية، حيث قام بدوره على تعيين نوابه في الأقاليم، ومن العمال الّذين استعملهم سليمان حاكماً على كانو، وعمر دلاج حاكماً على كاتسينا، ويعقوب حاكماً على بوشي، وبوبايرو حاكماً على غمبي، وموسى حاكماً على زاريا وإسحـاق حاكمـاً على دورا، وعبـد الله حاكمـاً عـلى كبي، وإبراهيـم زاك حاكمـاً عـلى بورنـو.

وأصبحت الدولة " سوكوتو" منارة للعلم والعلماء في غربي إفريقيا، وبعد وفاة الشيخ عثمان بن فودي تولى ابنه محمد بلو الخلافة في سنة 1232 هـ / 1817 م، واستطاع التغلب على كل المشكلات والعقبات فطالما كانت هناك معارضة فالجهاد لم ينته والحرب مستمرة حتى امتدت نفوذ خلافة سكوتو من ماسينا غربا إلى باغرمي شرقا رحلة أربعة أشهر ومن بلاد اليوروبا جنوبا إلى طرفي أدار وأغاديس شمالا على مسافة رحلة شهرين[14]، وجاء خلفاؤه من بعده ليكملوا المسيرة حتى سقوطها على يد الإنجليز سنة 1903م. وتؤكد مختلف المصادر على قدم الاتصالات التجارية لبلاد الهوسا مع شمال إفريقيا حيث تذكر أنّها من أكبر المناطق تبادلا عن طريق القوافل التجارية العابرة للصحراء الكبرى حيث يتم استبدال مختلف المواد والسلع بالمنتجات الإفريقية بواسطة عملية المقايضة أو ما يسمى بالتجارة الصامتة[15]. وقد كان سعى قادة خلافة سكوتو حثيثاً

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

على تنمية التّجارة، حيث عملوا على تحسين الطّرق التّجارية وحماية التّجار، وتعزيز طرق التّجارة الصحراوية[16].

ميز الهوسا نتيجة ممارستهم للتجارة بالدرجة الأولى بين التجـــارة الداخـــــلية "السنيكي" Siniki، وهي للمتاجرة بالمنتوجات الفلاحية والصناعية على نطاق محدود يتولاها المنتجون أنفسهم، والتجارة الخارجية "الفتوشي " Fatawtchi" فهي تجارة الجملة عبر مسافات بعيدة، وهي بيد التجار المحترفين[17].

وبهذا النظام نشطت التّجارة بين بلاد الهوسا ومختلف مناطق السّودان الغربي، حيث وجدت في المنطقة أسواق دولية، ففي الشّمال كانت أغاديس وبلما إذ تربط المنطقة بشمال إفريقيا، وفي الوسط كانت كاتسينا وكانو حيث تؤدّي دور الوسيط بين الشّمال والجنوب، وبين الشّرق والغرب، وفي الجنوب كانت زاريا الّتي تمدّ علاقاتها مع بلاد اليوربا[18].

ظلت التجارة الخارجية مزدهرة في ذلك الوقت، بفعل الامتداد إلى الجنوب إلى غاية الصحراء الإفريقية وشرقا وشمالا باتجاه البحر المتوسط؛ كما أوضحنا ذلك سابقا، زادها أهمية قربها من جزيرة مالطا وصقلية والدويلات الإيطالية وحتى الدول الأوربية، فقد كان تجارها يتعاطون التجارة على نطاق واسع مع التجار القادمين من جنوب الصحراء الكبرى والمغرب الاسلامي كالمغرب الأقصى، فالبلاد كانت تشكل شبكة طرق للقوافل التجارية وقوافل الحجيج باتجاه مكة والمدينة المنورة، وبذلك شكلت همزة وصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين، بالإضافة إلى أنّها كانت مركزا هاما لرسوِّ السفن التجارية من مختلف الأصقاع، إذ كانت سفن جنوة والبندقية والعديد من سفن أوربا تقوم بإفراغ البضائع وتبادلها مع بضائع وسلع الطرابلسيين، ومع بضائع التاجر والباعة الذين يأتون إلى البلاد لتصريف سلعهم في كل موسم، لعلمهم بأنّ التجار البنادقة والصقليين والمالطيين وحتى الإسبان والكثير من الأوروبيين يأتون إلى مدينة طرابلس الغرب بغية التجارة، بالإضافة إلى التجار العرب والمغاربة والأتراك وغيرهم[19].

ثانيا- طرق التجارة:

وقد ضمت الطرق الصحراوية بين طرابلس وخلافة سكوتو شبكة واسعة من طرق القوافل المباشرة وغير المباشرة شكلت حلقة تواصل بالغة الأهمية بين أقطار شمال إفريقيا وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، ومن بين أهم الطرق التجارية التي تصل بين طرابلس النشيطة إقتصاديا، وخلافة سكوتو الغنية بمواردها الطبيعية، الطريق الغربي الرئيسي عبر الهقار إلى غدامس من جهة ثم إلى مرزوق من جهة أخرى ومنها إلى غات ثم بلما ومنها إلى مختلف مدن خلافة سكوتو،(كاتسينا، كانو ، سكوتو) وهناك طريق آخر غير مباشر ينطلق من طرابلس إلى غدامس ثم توات ومنها إلى تمبكتو ثم تنتقل مختلف السلع إلى مدن خلافة سكوتو وكان الطوارق هم الذين سيروا هذا الطريق وطوروه منذ القرن الحادي عشر ميلادي عبر أراضيهم، حيث احتكروا

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

توزيع الملح من مناجم بلما كما كانوا وكلاء في نقل البضائع مقابل عمولة ومهمته إيصال السلع وتحملوا مسؤولية التسليم الآمن[20].

في عهد الأسرة القرمانلية وبفضل قوتها تمكنت من فرض الأمن على طرق القوافل التجارية[21]، لا ريب أنّ ميناء طرابلس مثل أدوارا بارزة في تسيير دواليب اقتصاد هذا الجزء الهام من قارة إفريقيا، كما أنّ الميناء يُعد أقرب مركز تلامس فيه الصحراء الكبرى أديم جنوب البحر الأبيض المتوسط، وإذْ ذاك فقد مثل نقطة التقاء بين سفن الأمم الحديثة الأوربية والإسلامية وقوافل التجارة الصحراوية التي شقت الصحراء الكبرى باتجاه الشمال[22]. وكانت تتوقف عند آبار المياه ومنابعها، وهنا يجب أنْ نوضح بأنّ نقاط تواجد المياه تُعد أماكن للراحة والتبضع كذلك، كما تُعد محطات للتزود بالأخبار المختلفة، ولابد أنّ أخبار الأسعار قد أخذت حيزا كبيرا من تلك الأخبار المتداولة، وعلى أية حال تظل أماكن للاستراحة من وعثاء السفر التي تكون بدرجة سلاسة المسالك من عدمها وكذا كميات السلع وتوفر الأمن[23].

وقد ازدادت أهمية تجارة القوافل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتوفر عنصر الأمن والاستقرار، وحرص الدولة العثمانية في المنطقة التي تبسط سيطرتها عليها وتنظيمها المحكم للتجارة نظرا لما تدره من أرباح كبيرة[24]. وقد استطاع يوسف باشا القرمانلي(1795-1832م) أنْ يوثق صلاته بالحكام وأمراء أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء، فكانت علاقاته وطيدة مع سلطان خلافة سكوتو السلطان محمد بلو (1781-1837م) حيث جرت بينهم اتصالات ومراسلات وتبادل للهدايا، كما حرص كل منهما على تأكيد أواصر المحبة والعلاقات الطيبة وتمثل ذلك في تعزيز النشاط الاقتصادي بتحفيز التبادل التجاري عن طريق القوافل وتأمين الطرق التجارية الصحراوية[25].

ومن الطرق المشهورة في طرابلس الطريق العامرة، ليست حديثة بل قديمة قدم التجارة نحو أقاليم بونو وتشاد، لسنا ندري إلى أي زمن بالضبط كانت الطريق تمر على أورفلة وسكونة وعلى طريق المواصلات بين زويلة شرقي فزان، هذا الخط ظل سابقا طريق خاص بتوصيل البريد لهذا الإقليم الأخير، ويبدأ خط هذا الطريق من جنوب طرابلس يتوغل في رمال الجفارة التي يقطعها وادي المجينين، ومنها إلى سفوح جبال ترهونة، حيث عيون المياه الغزيرة التي تتجمع في مجرى صخري وتواصل سيرها نحو الرمال مشكلة وادي الرمل الذي يعرف طريقه إلى البحر. ويلاحظ أنّ هذه المنطقة خالية من العمران.

ومن سفوح جبال ترهونة تستمر بين الجبال الإلتوائية شديدة الانحدار التي تقطعها الأودية الضيقة كوادي بني وليد وبعدها تلتقي ثلاثة طرق تصل إلى طرابلس من ناحية أخرى. بالاتجاه نحو الجنوب تتوغل الطريق في وادي دينار غير الضيق تفضي الطريق منها إلى قرية أورفلة، ثم إلى أودية منها وادي سوف ووادي زمزم وكلها بمنطقة الحمادة حيث توجد آبار المياه هنا وهناك. وعلى مدى مسيرة خمسة أيام تأتي أهم

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

محطة هي قرية أبو نجيم الواقعة في سهل شاسع بها ثلاثين بيتا وواحات من النخيل، يقوم فيها سوق يتمثل في دكان يبيع الشاي و مهاريس السكر والشمع.

بعده تدخل الطريق في صحاري عرب أولاد سليمان، وبعد مسيرة أيام تتجه الطريق نحو الجنوب الشرقي نحو منبع المياه عين الحمام، ومنها إلى سكونة[26].

يخبرنا الطبيب الالماني عن شطر الطريق بايجاز في إطار رحلته، أنّه سافر مع الحاج مصطفى زميت وخادمه الشتيوي باتجاه غات ويكون قد سلك هذه الطريق لأنّ العامل المشترك هنا هو ترهونة، إذْ يقول بأنّهم جاسوا خلال الحمادة الحمراء ثم ونزريك على وادي الشاطئ ثم الادهان وأوباري على الوادي الغربي ومنها إلى العوينات ومن ثم إلى غات، ويكون قد قطع هذه المسافة في غضون 42 يوما[27].

ثالثا- الأسواق البضائع والسلع:

1-الأسواق:

ما عثرنا عليه بخصوص الأسواق وجدنا أنّ أغلب أسواق مدن خلافة سوكوتو تقع خارج الأسوار، وذلك لتوفير مكان فسيح تلتقي فيه القوافل التّجارية سواء كانت خارجية أم داخلية[28]. وقد زار الرحالة كلابرتون مدينة كاتسينا سنة 1824م وذكر أنّ تجارتها وأسواقها مزدهرة إلى حد كبير، وأنه يُعقد بالمدينة سوقان يوميا أحدهما جنوب المدينة، والأخر في شمالها، ويقصد السوق الشمالي تجار غدامس وواحة توات شمال بلاد الطوارق، ويتم جلب مختلف السلع مثل الحرير الخام، والقطن، والملابس الصوفية، والخرز، والصباغة الحمراء، وتتم عملية التبادل بعملة الودع، ومن أهم السلع أيضا جلود الثيران التي تصدّر إلى فزان وطرابلس[29].

2- البضائع والسلع:

يصل لأسواق سكوتو ملح تاودني من تمبكتو، وبالمقابل تعتبر أقمشة بلاد الهوسا سلعة رائجة في أسواق تمبكتو[30]. كما تعد جلود الماعز المدبوغة الصفراء والحمراء بفعل ما طرأ عليها من أعمال الصباغة التي تشتهر بها معامل الحرف المتخصصة بالدباغة في الهوسا وسكوتو، سلعة رائجة، كما أنّ المنتوجات الأخرى من قرب الماء والملابس والأغطية القطنية، وهناك منسوجات الحشيشة المصبوغة بالأزرق النباتي وطيور الببغاء هي أيضا من بين البضائع، ومن برنو يُجلب الصباغ الأزرق وجلود النمور والأسود أيضا، ومن أقاليم كانم يجلب العاج والقرون وريش النعام وحتى الرقيق[31].

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

وكانت قافلة تسمى أزلاي AZLAI لا تقل عن 20الف جمل تنطلق كل خريف من مركز آير AIR محملة بالملح من مدينة بلما BALMA لسد حاجيات بلاد الهوسا والتي استمر وجودها إلى غاية 1908م، وهذا ما أكده كلابرتون في رحلته عندما كان في سوق كانو حيث وصلت قافلة تجارية للطوارق من بلما تتكون من ثلاثة ألاف جمل محملة بالملح فقط[32].

والجدير بالذّكر أنّه يمكن أنْ تتأثّر هذه التّجارة سلباً سواء الدّاخلية كانت أم الخارجية، بسبب انعدام الأمن، فإذا كانت هناك حروب فإنّها تسبب تعطّلاً للتّجارة في المناطق المعرّضة للمعارك، وهذا ما حدث أثناء الحرب الّتي دارت بين محمّد بلّو ومحمّد الأمين الكانمي في بورنو حيث أُستغل هذا الظّرف من طرف الطّوارق وأهل فزّان، واعترضوا سبيل الكثير من القوافل التّجارية مما أدّى إلى إفلاس الكثير من التّجار بضياع حمولتهم من السلع[33].

يدل نشاط التّجارة الخارجية على حركة القوافل بين شمال إفريقيا وجنوبها، إذْ أصبحت بلاد الهوسا بفضل هذه التّجارة تتداول حجما لا يستهان به من السّلع فكانت تستقبل سلع بلاد المغرب وأوربّا من المرايا والورق والإبل والتّمر والحنّاء والملح والسّيوف والخيول، ومقابل ذلك كانت بلاد الهوسا تصدّر منتجاتها من الجلود والتّبر والذّرة الرّفيعة وجوز الكولا ومختلف السّلع الأخرى[34].

مع ازدهار الزّراعة والصّناعة تطورت معها الأسواق وظهرت المراكز التّجارية الكبيرة، وأصبحت أكثر تنظيماً مثل سوق مدينة كانو الّذي عبّر عنه الرّحالة كلابرتون Clapperton بأنّه من أحسن أسواق إفريقيا تنظيماً، من حيث حركة البيع والشّراء، وتحديد الأسعار وإيجار المحلاّت.[35]

ظلت حركة التجارة التي كانت قد بدأت منذ أكثر من عشرين قرنا تستهوي اهتمام التجار، الذين جلبوا مواد أخرى أضحت مطالبا أساسيا بل وغدت محل اهتمام الوافدين إلى سوق طرابلس الغرب على مختلف انتماءاتهم، ومن بين هذه المواد التي كانت تتدفق على السوق الذهب في أشكال مختلفة، كالتراب والسبائك، كان ذلك في أسواق مرزق. كما كان يجلب هذا المعدن النفيس من أواسط نيجيريا، وفي زمن مضى ليس بالبعيد كان الذهب قد أصبح عملة نادرة يتم التعامل من خلاله في التجارة بواسطة مثقال ذهب أو جزء من أجزائه ولعل ذلك كان في أسواق غدامس[36]، فزان وغات[37]. لقد لقي رواجا كبيرا، فالحجاج الذين قدموا من إفريقيا جنوب الصحراء كانوا يقايضون الذهب بما يستهلكون أثناء رحلاتهم[38].

لم يقتصر الأمر على ما ذكرنا من السلع؛ فحتى الكتب، المخطوطات والورق من بين أهم بضائع القوافل التجارية، فقد كانت قوافل التجار الطوارق محملة بالكتب مما ساعد على رواج تجارة الكتب بين العلماء[39]. ويبدو أنّ المركز الرئيسي لاستيراد الكتب خلال فترة الازدهار عندما كانت الأسعار والطلب على أعلى مستوى هو تمبكتو والأسواق ذات الصلة حيث كان الكثير من العلماء في طريقهم من وإلى مكة المكرمة في نقل مختلف الكتب العلمية، ويبدو من المحتمل أيضاً أنّ تكون تمبكتو، إلى جانب بورنو، رائدة أيضاً في استبدال

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

واردات الورق بدلاً من الكتب، والواقع أنّ دورهم في تجارة الورق ربما سهل على الوراقين الحفاظ على التدوين وكتابة أعمال التاريخ المحلي، وفي أماكن أخرى كان سعر الورق وندرته قد أعاق عملية كتابة وتدوين مختلف العلوم، وكان تطور بورنو في وقت لاحق كمركز لتجارة الكتب مع وجود كانو كسوق مزدهرة بتجارة الكتب، فمن المحتمل مع ذلك أنْ بعض الكتب وصلت إلى بورنو من مصر، وطرابلس وتونس وأصبحت متداولة في السودان الغربي[40].

عندما استولت فرنسا على المراكز التجارية جنوب الصحراء مثل سكوتو، كانو وتمبكتو في حدود عام 1895م، أصبحت التجارة الصحراوية مهددة لاسيما بعد ظهور الطريق الملاحي النهري الذي تسيطر على بريطانيا عبر دلتا نهر النيجر الذي اختصر المسافة وقلل من تكلفة النقل[41]، بيد أنّ ذلك لم ينه حركية التجارة بين طرابلس وخلافة سكوتو.

الخاتمة:

مثّل موقع طرابلس الغرب دورا رئيسيا مميزا في ازدهار تجارة القوافل، ومثل حلقة الوصل التي لا غنى عنها في ربط شمال القارة الإفريقية بجنوبها، وكانت الصحراء الكبرى بواحاتها ومحطاتها الجسر الرئيسي في التبادل التجاري بين جنوب الصحراء الغنية بمواردها الطبيعية، ومراكز التجارة في المناطق الساحلية مثل طرابلس الغرب وغيرها.

ولم تكن الصحراء الكبرى حاجزا يفصل بين المنطقتين، بل بالعكس كانت فضاءً بشبكة طرقها وواحاتها ومحطاتها؛ تشكل همزة وصل ساعد في تنقل مختلف البضائع التجارية بين الطرفين، وتنقل معها أيضا مختلف المظاهر الحضارية. كما كانت عملية التبادل التجاري بين طرابلس وخلافة سكوتو خاضعة لحاجة كل منهما لسلع الدولة الأخرى، فكانت خلافة سكوتو تصدر مختلف السلع الجلدية والحديدية التى تنتجها بينما حملت القوافل التجارية البضائع التي تنتجها البلاد المغاربية، بالإضافة إلى السلع المستورة من أوربا.

كما ساعدت تجارة القوافل في ازدهار المدن الواقعة على الطرق التجارية خاصة غدامس وغات ومرزق وبلما حيث نشطت بها الوكالات التجارية بين الدولتين أدى بالتواجد الأوربي خاصة الفرنسي والنجليزي إلى انحسار تجارة القوافل بين البلدين، لسيطرتهما على شبكة الطرق التجارية وتحكمهما في عملية التبادل التجاري.

- ملحق يوضح الطرق التجارية من طرابلس الغرب نحو سكوتو[42].

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

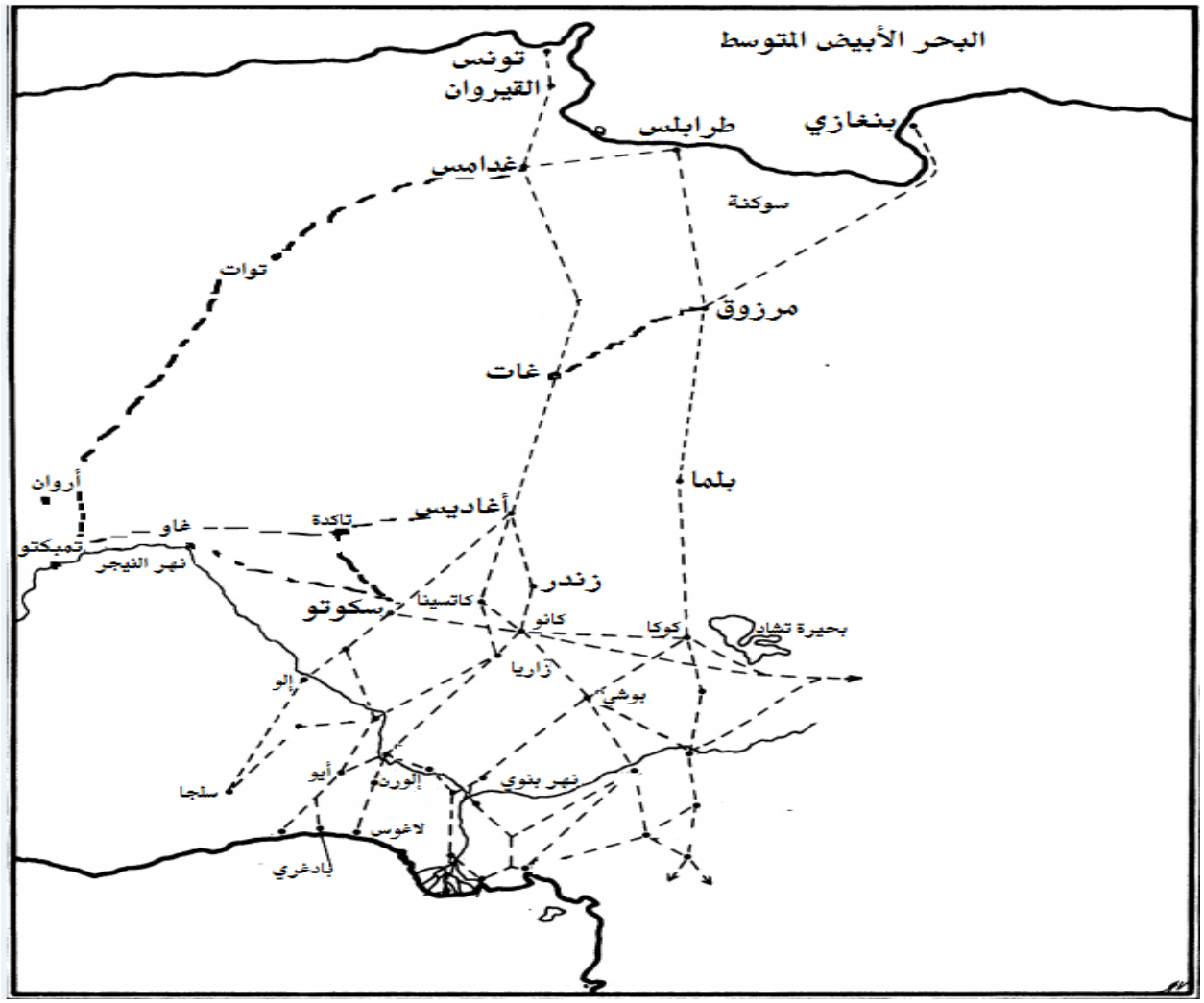

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

المراجع

[1] ابن غلبون الطرابلسي: تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار في من ملك طرابلس الغرب وما كان بها من أخبار" نشره وصححه وعلّق عليه، الظاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1333هـ/1920م، ص ص 41–43.

[2] نجم الدين غالب الكيب، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا 1328هـ/1978م، ص13.

[3] خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1997م ص7.

[4] نجم الدين غالب الكيب: المرجع السابق، ص ص 13،14.

[5] جامي عبد القادر، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد الأسطى، ط1، دار المصراتي للنشر و لاتوزيع، طرابلس1984م، ص18.

[6] الطاهر أحمد الزاوي: مقدمة كتاب التذكار لابن غلبون، ص ص23،24.

[7] جامي محمد، المرجع السابق، ص18.

[8] جامي محمد، المرجع السابق، ص21.

[9] تضم ممالك الهوسا كل من كانو، كاتسينا، زاريا، غوبير، دورا، رانو، زمفرا.

[10] محمد لواء الدين احمد أحمد محمد لواء الدينن الإسلام في نيجيريا و دور الشيخ عثمان بن فودي في ترسيخه، ط1، دار الكتب العلمية 2009، بيروت،، ص139.

[11] محمد بلّو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تح: علي عبد العظيم وآخرون، 1964، ص 213.

[12] أحمد شلبي، موسوعة التّاريخ الإسلامي، ط 7، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج6، 1986، ص 286.

[13] إبراهيم عبدا لله عبد الرزاق، الإسلام و الحضارة الإسلامية في نيجيريا،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، دت، ص 53.

[14]Murray Last: The Sokoto caliphate. (Ibadan History Series.)lxxxii, 280 pp., front., 8 plates. London: Longmans, Green and Co. Ltd, 1967, p63.

[15] R .Olujemi Ekundare: An Economic History of Nigeria r86o-r96o, 11 New Fetter Lane, Londo11 EC4P 4EE1973,p21.

[16] ج. ف. أ. أجايي، افريقيا في مطلع القرن التاسع عشر قضايا و توقعات، تاريخ افريقيا العام، ج 6، ، ص 43.

[17] دجيبو سايبو، الدور الحضاري لشعب لهوسا في الفضاء النيجيري من القرن الرابع عشر الميلادي إلى بداية الاستعمار الأوربي، إشراف: نجم الدين الهنتاني، رسالة دكتوراه، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 2008 ، ص ص 208–209.

[18] د، لايا، دول الهوسا، تاريخ افريقيا العام، ص533.

[19] – إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة1911، ترجمة وتقديم، خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا،1991، ص 147.

[20] ROLAND OLIVER ANTHONY ATMORE Medieval Africa, 1250 -1800 Cambridge University Press 2001 p47-48.

[21] مصطفى عبد الله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي :الأسس التاريخية لمستقبل لوبيا، مطابع عابدين، الاسكندرية، 1953، ص185.

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

[22] جامي محمد، المرجع السابق، ص20.

[23] حوتية محمد الصالح، توات والأزواد خلال القرنين 12–13 هـ– 18–19م، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر2007م، ص146.

[24] الدرسي عبد الرحمن محمد، دور التجار الليبيين في تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى وأواخر القرن التاسع عشر، ع1,2، مجلة قاريونس العلمية جامعة قاريونس، 2009 ، ص 108.

[25] أنظر رسالة يوسف باشا القرمانلي للسلطان محمد بلو الملحق 2.

[26] جامي محمد، المرجع السابق، صص 70–84..

[27] غانم عماد الدين، الطبيب الألماني أرفين فون باري 1846–1877م ورحلته إلى غات وبلاد الآبير، مركز منشوراد جهاد الليبيين، ليبيا1995م، ص23.

[28] Clapperton and others. Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa,1822-23 and 1824, London, 1926 , p 174.

[29] دينهام، كلابرتون، أوديني، رحلة لاكتشاف إفريقيا، ج2، تر: عبد الله عبد الرزاق ابراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص 216.

[30] Baillaud Emile, Sur les routes du Soudan, Toulouse E. Privat, 1902, p 199.

[31] جامي محمد، المرجع السابق، ص93.

[32] كلابرتون، دينهام، رحلة لاكتشاف إفريقيا، تر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، ط1، ج2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص 164.

[33] Clapperton, Op cit, p 17.1.

[34] د، لايا، المرجع السّابق، ص ص533– 535.

[35]Paul E. Lovejoy.Plantations in the Economy of the Sokoto Caliphate, J A H, Vol. 19, No. 3 Cambridge University Press ,1978, pp 253-254.

[36] منطقة شاسعة تقع على بعد ثلاثة مائة ميل من ساحل البحر، يسكنها اقوام، تضم العديد من القصور وكذلك القرى الآهلة بالسكان، بعض قاطنيها بالثراء، يملكون بساتين النخيل ، وقد احترفوا التجارة مع بلاد السودان، كانوا يؤدون ما عليهم من ضرائب للأعراب عندما كانوا خاضعين لملك تونس وخليفته في طرابلس، أما شؤونهم فكانوا يدبرونها بأنفسهم. ينظر: الوزان الحسن بن محمد محمد، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي،ج1، ط2، القسم6، دار الغرب الإسلامي، بيروت1983م، ص146.

[37] مدينة في اقليم واسع بصحراء طرابلس المتاخم لمصر، تبعد عن القاهرة بستين يوما، آهلة بالسكان تتخللها قصور كبيرة وقرى متناثرة في أنحاء الاقليم، يخضع الاقليم كما المدينة لشيخ يعد القاضي الأول فيها، لها خراج سنوي يؤدى للأعراب كذلك، يمثل محطة تجارية هامة لكن سعر اللحم والخبز مرتفعان، إذ اللحم المتوفر في الغالب هو لحم الجمل. ينظر: الوزان، المصدر السابق، ص147. .

[38] جامي محمد، المرجع السابق، ص94.

ISSN – 2773 – 3858
EISSN – 2992 – 0973

[39] Murray LAST, « The Book in the Sokoto Caliphate », dans Shamil JEPPIE, Souleymane Bachir DIAGNE, *The Meanings of Timbuktu,* Cape Town, CODESRIA, 2008, p138.

[40]Murray LAST, « The Book in the Sokoto Caliphate », dans Shamil JEPPIE, Souleymane Bachir DIAGNE, *The Meanings of Timbuktu,* Cape Town, CODESRIA, 2008, p, p146.

[41] صقر مصطفى احمد، عوامل انحسار تجارة القوافل بولاية طرابلس الغرب والآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على ذلك1910–1911م، مدن وقرى الجبل الغربي أنموذجا، مجلة التربوي، العدد6، جامعة المرقب، ليبيا 2015، ص ص4–44.

[42]David C. Tambo, The Sokoto Caliphate Slave Trade in the Nineteenth Century, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 9, No. 2 Boston University African Studies Center, 1976, p188.